عبثية أن يحكم فقه الرواية فقه الآية

لقد أغلق الله تعالى جميع أبواب المرجعيات الدينية ببعثة رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، واصطفى أمته لتحمل «آيته القرآنية» بين الناس، وتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتتحمل مسؤوليتها في الشهادة عليهم على مر العصور، كما تحمل رسول الله مسؤوليته فكان شهيدا على عصره:

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً...».

لقد كانت شهادة رسول الله، وصحبه الذين رضي الله عنهم، شهادة بلاغ وتفعيل لنصوص «الآية القرآنية» بين الناس، كانت شهادة الأمة الواحدة، التي لم تعرف تفرقا مذهبيا، ولا تخلفا حضاريا. لقد عرفتهم من خلال تدبرى لنصوص «الآية القرآنية»، فشهدت لهم بما شهد به القرآن، ولكن أين هي هذه الأمة التي تأست برسولها، فأقامت واقعا مُشَرّفا يشهد بسموها الأخلاقى، وسلوكها الحضارى، في عصرتحديات الاتصالات العالمية، والتقنيات الرقمية، وثورة الإنترنت، والليزر، والفيمتو ثانية، والنانو تكنولوجي، والميكروسكوب الإلكتروني؟!

لقد تفرق المسلمون إلى أحزاب متصارعة، وانشغل كل حزب بتراثه الديني، وجعله حاكما على فاعلية نصوص «الآية القرآنية»، فلما هجروا «الآية القرآنية»، فقدوا خيريتهم، وشرف شهادتهم على الناس.

إنها مصيبة كبرى أن يتخلى المسلمون عن مسؤوليتهم في الشهادة على العالمين مخالفين بذلك سنة نبيهم، فرحين بتفرقهم وتخاصمهم، وبتعميق أزمة التخاصم والتكفير بينهم، من خلال منابر الدعوة التخاصمية، المحلية والفضائية!

لقد سألت نفسي: أي فرقة من الفرق الإسلامية تعاملت مع كتاب الله باعتباره «الآية القرآنية» الدالة على صدق رسول الله محمد في بلاغه عن الله؟! أي فرقة من الفرق الإسلامية أقامت شهادتها على الناس على أساس فاعلية نصوص «الآية القرآنية» بينهم؟!

لقد غاب فقه «الآية» عن واقع الناس، وحضر فقه «الرواية»، فقه التخاصم والتكفير، وتوقف بظهوره عطاء «الآية القرآنية» المتجدد مع كل عصر، هذا العطاء الذي كان من المفترض أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويواجه التحديات والشبهات التي تسيء للإسلام والمسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالصراخ وحرق الممتلكات وقتل النفس بغير حقَ!

إنه يستحيل أن يعرف أئمة وعلماء الفرق الإسلامية المختلفة طريقهم إلى نصوص «الآية القرآنية» وهم يصرون على تقديس أئمة السلف، وتقديس تراثهم الدينى، الذي حملوا مؤهلاته وتخصصاته العلمية من مؤسسات دينية مذهبية، قامت على أزمة التفرق والتخاصم بين المسلمين!

إن دين الله ليس مهنة أو حرفة، لها مؤهلاتها العلمية، التي يجب أن يحصل عليها المسلم من المؤسسة الدينية التابعة للمذهب الذي ينتمي إليه، فهذه المؤسسات تعمل على ترسيخ أصول التفرق والتخاصم في قلوب أتباعها، باسم العمل بكتاب الله وسنة رسوله!

لقد آمنت أن رسالة الله الخاتمة، «آية قرآنية» عالمية، وليست تراثا بشريا مذهبيا يرثه علماء الفرق والمذاهب المختلفة، كل حسب مدرسته في التفسير والتأويل والجرح والتعديل، ذلك أن الساحة التي انتصر فيها رسول الله، ودلت على صدق بلاغه عن الله، كانت فاعلية «الآية القرآنية» بين الناس، الممتدة المفعول إلى يوم الدين، فكيف يترك المسلمون هذه الساحة، ويتدينون بتراث فقد فاعليته منذ قرون مضت؟!

لقد قمت بحصر معظم الخلافات القائمة بين علماء وأتباع الفرق والمذاهب المختلفة، وكذلك فتاوى التطرف واستباحة الدماء بغير حق، فوجدتها قائمة على «مرويات» منسوبة إلى رسول الله، ما أنزل الله بها من سلطان، ولقد كان لها أثرها الكبير على الفهم المذهبى المعوج

لآيات الذكر الحكيم، وعلى ثقافة التخاصم والتكفير التي تشربتها قلوب أتباع هذه المذاهب المختلفة، وعلى تعميق أزمة الخلاف الفقهي بينهم!!

والسؤال: مادام السابقون واللاحقون مختلفين في أحكام الشريعة لاختلافهم في حجية «المرويات» التي يستقون منها هذه الأحكام، ففريق يقول بالحل في مسألة استنادا إلى ما صح عنده من مرويات، والآخر يقول بالحرمة مستندا إلى ما صح عنده من مرويات جاءت في نفس الباب وإن لم تصح عند غيره .. إذن فلماذا نشغل المسلمين بآراء واجتهادات فقه السلف المدون في آلاف الصفحات، ومئات المجلدات، لنصل في النهاية إلى أن الحكم في مسألة بفعلها أو اجتنابها سواء؟!

لماذا لم تقتصر أبواب الفقه الإسلامي على ما اتفق على تحريمه فقهاء الفرق والمذاهب المختلفة في عصر معين، ثم يعاد النظر في هذه الأحكام حسب مقتضيات وإمكانات كل عصر؟!

فهل يعقل أن تعرض أحكام الشريعة على المسلمين بهذه الصورة المذهبية المؤسفة فمذهب يقول بالحل ومذهب يقول بالحرمة، في مسألة واحدة، وفي قضايا تتعلق بقرون مضت، والمفتون أتباع مذهب واحد؟!

لماذا ظل الفقه الإسلامى يتحرك في حراسة أتباع أئمة المذاهب الفقهية المختلفة؟! لماذا يصر الخلف على الرجوع إلى فقه واجتهادات السابقين، في مسائل حياتية اختلفت طبيعتها، وأشكالها، ووسائلها، وأصولها، وقواعدها.. عما عليه الناس اليوم؟!

وإذا كانت «المرويات» المنسوبة إلى رسول الله هي كلام النبي المبيّن للقرآن، فلماذا احتاجت هي أيضا إلى بيان و**شرح** علماء الحديث؟! هل يحتاج المبيِّن إلى من يبينه؟! ولماذا ظهرت أمهات كتب التفسير والفقه؟ وما هي أهميتها، إذا كانت كتب الحديث هي التي حملت البيان النبوي للنص القرآني؟!

وإذا كانت اجتهادات وشروح أئمة الفرق والمذاهب المختلفة، قد زادت مع بداية عصر التدوين، ثم زادت **الحواشي** على الشروح، ثم زادت الهوامش على الحواشي، إلى أن أُغلق باب الاجتهاد منذ ألف عام تقريبا، فأين نجد «الأحاديث النبوية» بكلماتها وحروفها التي خرجت على لسان النبي، وسط هذه المنظومة المذهبية التي حملت للناس أزمة اختلاف المحدثين، وعلماء الجرح والتعديل، في تصحيح وتضعيف المرويات التي أقام عليها كل فريق مذهبه؟!

إن معظم المسلمين اليوم أعضاء في منظومة واحدة، هي منظومة الآبائية المذهبية، لذلك فهم يواجهون خطرا واحدا وهو خطر محو هويتهم الإسلامية، هذا الخطر الذي لا يراه إلا أصحاب البصيرة، والذي يتحمل مسؤولية ذلك هم الذين يصرون على تفرقهم وتخاصمهم، وانشغالهم بخلافاتهم المذهبية، وفتاوى التخلف، وثقافة الهزيمة!!

إنه لا سبيل أمام المسلم، الذي يريد أن يتعرف على طبيعة وخصائص المصدر الثاني للتشريع، وما حمله من تراث دينى مذهبى تكفيرى، ومرويات منسوبة إلى رسول الله ما أنزل الله بها من سلطان.. إلا أن يدرس أمهات كتب الفرق الإسلامية المختلفة، دراسة علمية جادة، سيعلم بعدها معنى قول الله تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» -ـ «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً».

فهل شكر المسلمون ربهم على نعمة النور المبين، وتحملوا مسؤوليتهم على الوجه الذي يرضى الله تعالى؟! وهل استحلال الدماء استنادا إلى مرويات ظنية الثبوت عن رسول الله، إن صحت عند فريق لم تصح عند آخر، من شكر الله على هذه النعمة؟!

ولكن الأخطر من ذلك أن يفجر الإنسان نفسه وسط المخالف له في الملة أو المذهب، بفتوى تبشره بدخول الجنة من غير حساب!! إذن فلماذا لا يأخذ المسلمون وعلماؤهم قراراً موحدا بالهجوم على عدوهم على قلب رجل واحد بهذه الطريقة السهلة، التي ترفع عنهم مسؤولية الشهادة على الناس، ولا تحتاج إلى مناورات عسكرية، ولا إلى إعداد ما استطاعوا من قوة؟!

لماذا لا يبادر علماء المسلمين بهذا العمل ليفوزوا جميعا بالجنة، التي هي أصلا أمل كل مسلم، وبذلك تنتهى مشكلاتهم العائلية وأزماتهم الاقتصادية والمالية والاجتماعية والصحية؟!

إن الأمة الإسلامية، المقطعة الأوصال، لم تحظ بأى تأييد إلهى ينصرها على عدوها المحتل لأراضيها، السالب لكرامتها، الناهب لخيراتها، المحطم لعزتها.. فلماذا لم يُمكِّن الله تعالى دينه الذي ارتضاه لهذه الأمة ليصبح المسلمون بنعمته إخوانا، في مواجهة التحديات التي تسعى لمحو هويتهم الإسلامية؟! أليس الله تعالى هو القائل، مخاطبا المؤمنين:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ».

لماذا لم يبدل الله خوف المسلمين أمنا؟! هل المشكلة في وعد الله أم في الموعودين؟! هل يمكن أن يخلف الله وعده، أم أن إيمان الموعودين ذهب ولم يعد؟!

لقد جاءت «الآية القرآنية» لتأخذ بأيدى الناس إلى بناء مستقبل أفضل، فهل أقام المسلمون إسلامهم على فهم واع لمكانة هذه «الآية القرآنية»، وفاعلية نصوصها، وقيمها الحضارية ومقاصدها العليا، أم أنهم أقاموا إسلامهم على استرجاع الماضى، وإسقاطه على الحاضر، فتخلفوا عن ركب التقدم الحضاري؟!

لقد حكم الإسلام الوراثى إسلام «الآية القرآنية»، وحكم فقه الرواية فقه الآية، وحكم الهوى علم السياق القرآنى، وحكمت الفُرقة والمذهبية المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، وحكمت القراءات الشاذة للقرآن قلوب كثير من أتباع الحداثة والمعاصرة .. وهذا هو التحدي الأكبر الذي يفرض على الشعوب أن تستيقظ من سباتها، وتعمل له ألف حساب، وإلا فإن حكم الجاهلية الأولى آت، بعد أن ظهرت ملامحه حولها!!

إن عاطفة الشعوب الدينية وحدها لن تصنع مستقبلها، وإنما يصنعه العلم والتقدم الحضارى، وعندما تحركت الشعوب بعاطفتها الدينية لتقول نعم لحملة الرايات الدينية المذهبية دفعت ثمن ذلك دماء وتشريدا وخرابا لبلادها، والمستفيد الأول هو القوى العظمى، التي لم تجد سلاحا فاعلا تستعمله لإعادة تشكيل العالم العربى وصياغته بما يحقق مصالحها وأهدافها غير سلاح تفرق المسلمين وتخاصمهم، الذي قدمه المسلمون لها على طبق من ذهب!!

«وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» ـ «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا».

معلومات:

*** الشرح: عمل يُتوخى فيه توضيح ما غمض من المتون، وهي رسائل صغيرة خالية من الاستطراد والشواهد والأمثلة، وتفصيل ما أُجمل منها، وهو يتراوح بين الطول والقصر والسهولة والعسر، وفيه الوجيز والوسيط والبسيط.**

*** الحاشية: إيضاحات مطولة دعت إليها ظاهرة انتشار المتون والشروح، وقد قصد منها حل ما يستغلق من الشرح، وتيسير ما يصعب فيه، واستدراك ما يفوته، والتنبيه على الخطأ والإضافة النافعة، وزيادة الأمثلة والشواهد.**

محمد السعيد مشتهري

رابط المقال :

http://www.feqhelquran.com/uploaded/2015118142818968111.pdf